التجربة الحضارية التاريخية الغربية ذاتها، حيث توجد عدة انقطاعات كاملة. فعصر النهضة كان رفضاً للعصور الوسطى، ورفضاً للدين والكنيسة. وهناك كذلك الثورتان الفرنسية والبلشفية، وهما تجربتان تاريخيتان ليس لهما ما يشبههما في التشكيلات الحضارية الشرقية، فهما تشكلان ما يشبه الانقطاع الكامل عما سبق، وهدماً كاملاً للنظام القديم، ورفضاً جذرياً للدين وللقيم الأخلاقية المرتبطة به، وطرح رؤية جديدة للعالم والإنسان. وكل هذا أمر مفهوم داخل التاريخ الغربي، وعلينا فهمه واستيعابه.

ولكن يبدو أن التغيير داخل التشكيلات الحضارية الشرقية يأخذ شكلاً مغايراً يحتفظ بقدر من الاستمرارية (ربما بسبب امتدادها الزمني). فالثورة الماوية في الصين، رغم كل ديباجاتها الماركسية اللينينية، احتفظت بكثير من التقاليد الصينية، سواء على مستوى العقيدة أو السياسة. وانتقال اليابان إلى العصر الحديث تم في إطار الحفاظ على التراث والهُوية (مما حدا ببعض علماء الاجتماع أن يطرح مصطلح «رأسمالية إقطاعية» ليصف النظام الاقتصادي الياباني). وأعتقد أن الشرق الإسلامي ظل يتمتع بقدر كبير من الاستمرارية حتى نهايات القرن التاسع عشر.

وكلمة «انتفاضة» مناسبة تماماً لوصف هذه الاستمرارية، فهي صورة مجازية تبلور إدراك الإنسان الفلسطيني للواقع الصهيوني. وهي مشتقة من فعل «نفض»، مثل: «نفض الثوب» يعني حرّكه ليزول عنه الغبار أو نحوه. ولعل هذا وصف دقيق للاستعمار الاستيطاني الصهيوني الذي لم يضرب جذوراً في تربتنا الجغرافية والتاريخية، فهو مثل الغبار الذي علق بالثوب الفلسطيني ولم يمس الجوهر. ويقولون أيضاً: «نفض المكان» أي نظر جميع ما فيه حتى يعرفه، وهذا تكتيك معروف لدى شباب الانتفاضة. ويقولون أيضاً: «نفض الطريق» أي طهره من اللصوص. ويقال «النفضة» وهي الجماعة يبعثون في الأرض متجسسين لينظروا هل فيها عدو أو خوف، وهذا أيضاً تكتيك آخر للمنتفضين. وتحمل الكلمة أيضاً معاني الخصوبة فيقال: «نَفَضَ الكَرْم» أي تفتحت عناقيده. ويقال ـ وهذا هو